تحت الرعاية السامية لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي

SOUS LE HAUT PATRONAGE DE MONSIEUR, LE MINISTRE DE L' ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

الجـامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار

L'UNIVERSITE COLONEl AHMED DRAYA-ADRAR

تنظـــــــم

ORGANISE

الملتقى الدولي الحادي عشر

Onziéme Colloque International

التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة

Le Soufisme en Islam et Les défis contemporains

أيام: ٩-١٠-١١ نوفمبر ٢٠٠٨

المحور الثاني:

نشأة التصوف وأعلامه

في ضوء التجربة الصوفية عند
محمد إقبال

أ.مخلوف حمودي
بمعهد تكوين المعلمين بـ
بن عكنون الجزائر

مقدمة:

إن شبه القارة الهندية عرفت حضارة إنسانية قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة، إلا أن تاريخها في تلك الحقبة البعيدة قد ظل مجهول. [1] لذلك تعتبر مهد الإنسان والعلم والمعرفة، والأدب، والفن، وقد أنجبت من رجال الإعلام ما لا يعد ولا يحصى . ومن خيرة ما أنجبت هذه القارة: الشاعر والأديب الفيلسوف محمد إقبال، الذي اتسم شعره بسهولة الأسلوب، ووضوح العبارة وقوة المعاني وسرعة التأثير، فقد بلغ عدد الدراسات التي تناولت فكره بالدراسة سنة 1977م حوالي 2000 ما بين كتاب ورسالة، عدا ما نشرعنه من البحوث والمقالات، ناهيك عن المحاضرات والندوات، التي أقيمت له في مختلف بلدان العالم .

المبحث الأول: البيئة والمنشأ

أولا: البيئة الهندية:

لا نستطيع في هذا المجال أن نتحدث بالتفصيل عن تاريخ الهند، حضارتها، تقاليدها، لغاتها، حكمتها، ودياناتها، لان ذلك سيدخلنا في تفصيلات لا يسعها المقام، وحسبنا أن نقتصر على نظامها الطبقي، وأهم الأديان المنتشرة فيها، حتى نعرف البيئة التي أنجبت الرجل .

فالنظام الطبقي في شبه القارة الهندية قد اتخذ صورة بغيضة، وذلك لأنه كان يقسم الشعب الهندي إلى أربعة طبقات هي: (2)

- **طبقة البراهمة: وهي طبقة الكاهنة ورجال الدين**
- **طبقة الجيش والمحاربين**
- **طبقة "الفيشة": وتشمل طائفة المزارعين والتجار**
- **طبقة الشوادر: وهي طبقة الخدم والمنبوذين**

لقد كان هذا التفاوت الطبقي تفاوتا صارخا، إلى الحد الذي أهدرت فيه إنسانية الإنسان بالنسبة لطبقة الخدم، وذلك لأن شرائع "منو" قد جعلت لكل طبقة حدود لا تتعداها، وأطلقت يد البراهمة من كل قيد، ونصت على أن البرهمي لا يدنس بذنب حتى ولو قتل الشعب كله، وأباح "منو" لأبناء الطبقات الثلاثة الأولى حق المصاهرة فيما بينهم، فإذا تجاوز ذلك إلى طبقة "الشوادر" انقلبوا منبوذين، وكم من شوردي تجرع حمما من الزيت، وكم منهم من قطعت يده لمجرد معارضته للبراهمة.(3)

ثانيا: أديان الهند [4]:

انتشرت في الهند – كما يذكر المؤرخون – أديان شتى ومذاهب مختلفة، كان من أهمها الأديان الكبرى الثلاثة:

أ- البرهمية: **تنسب هذه الديانة إلى " برهمن" وهي أقدم الديانات الهندية، وكانت في أصل نشأتها تتسم بالتوحيد الخالص في العقيدة، العدل في الاجتماع، والاتصال الروحي المباشر بفاطر الكون، ولكنها قد انحرفت انحرافا شديدا، وتعقدت تعقدا شديدا، أصبحت به فلسفة غير علمية[5]، وأهم عقائد هذه الديانة:**

1- **عقيدة تناسخ الأرواح.**
2- **عقيدة وحدة الوجود.**
3- **تقديس البقر.**

ب – البوذية: **تنسب إلى "بوذا" الذي ولد على حدود النيبال في الهند حوالي سنة 560 قبل الميلاد في أسرة نبيلة، وقد مال إلى التقشف منذ صغره، وظل في تقشفه وتأمله إلى أن أدرك انه تحرر من الهوى ومن شرور الكون، ومن الجهل، وعندئذ أطلق على نفسه اسم "بوذا" وهي تعني "العارف المستنير"، وتوصل بعد طول تأمل إلى الحقائق التالية:**

1- **الآلام الموجودة في الولادة، المرض، الولادة، والموت . والحياة كلها آلام وشرور.**
2- **سبب هذه الآلام والشرور هي الشهوة، التي تنمي فينا الرغبة في اللذة، وإشباع الحواس، وفي إثبات الذات.**
3- **الطريق إلى التخلص من الآلام والشرور هي أن ينسى الإنسان نفسه، وأن يمحو كلمة "أنا"**
4- **بذلك يصل الإنسان إلى صفاء الروح وسكينة النفس، حتى يتحقق له الغناء**

وقد استكملت البوذية معتقداتها على أيدي كبار مفكريها بعد مؤسسها، وآمنت بالله وإن أنكر بعضهم تدخله في العالم، كما أنكر البعض إرسال الرسل.[6]

ج – الجينية: **مؤسسها هو "فارداماتا"، ولد في أسرة نبيلة، بالقرب من مدينة "فيشالى" في الشمال الشرقي من الهند . مال إلى الزهد واخذ يدعو إلى نشر الفضائل والسلام بين الناس حتى أطلق عليه اسم "جينا"، أي الغلاب الذي انتصر على الشهوات، ولهذا الاسم الجديد نسبت ديانته فسميت "الجينية". [7] وهذه الديانة تنظر إلى الحياة على أنها لعنة ينبغي أن يتخلص المرء منها، بنعمة الانتحار البطيء جوعا، ليبلغ سر الوجود، ويدرك الحقيقة المجردة، وطريق الخلاص عند "الجينيين" يقتضي الامتناع عن إيذاء أي كائن حي أو أي جماد .[8]**

د- الإسلام في الهند: **عرفت الهند الإسلام مبكرا عن طريق العرب الذين كانت لهم صلات تجارية بالهند، وبدأ تفكير المسلمين في فتح الهند مبكرا، إذ يرجع إلى عهد الخليفة الثاني، فقد سير احد ولاته جيشا إليها سنة 92 هجري، ثم كان الفتح الإسلامي الكبير للهند على يد السلطان "محمود الغزنوي"**

سنة 1001م، وقد أسس هذا السلطان أول دولة إسلامية في الهند وهي الدولة الغزنوية، ثم تتابعت الدول الإسلامية فيها إلى أن سقطت آخر دولة وهي "الدولة التيمورية" التي أسسها السلطان "بايرشاه". [9] وقد ساعد النظام الطبقي المتجاوز للحدود، الذي أوردناه سابقا إلى دخول شعوب شبه القارة الهندية في الإسلام واعتناق عقيدته ونصرته .

المبحث الثاني: حياته وشخصيته

أولا: مولده: **ولد محمد إقبال سنة 1977م في مدينة "سيالكوت" بإقليم البنجاب، الذي يقع الآن في الباكستان، وهو سليل بيت معروف من أوساط بيوتات البراهمة في كشمير، اسلم جده الأعلى قبل مئتي سنه من ولادته، وعرف ذلك البيت منذ ذلك الحين بالصلاح والتصوف، فكان أبواه على درجة عالية من الصلاح والتقوى والزهد، وحبهم للخير، وقد أثنى عليهما في مواضع من مقاصده فقال في حق أمه: << ساميت النجم بتربيتك، كان فحز الآباء والأجداد بيتك، كانت حياتك صفحة مذهبة في كتاب الكون، كانت قدوة في الدين والدنيا >> [10] . كما ذكر إقبال في ديوانه "أسرار الذاتية" حادثة تبين مدى حرص والده على تنشئته على الأخلاق الفاضلة، حيث قال له يوما << تذكر يا بني جلال المحشر انظر إلى لحيتي البيضاء، ونحول جسمي المرتعش بين الخوف والرجاء كن يا بني برعما مزهرا في غصن الملة المحمدية،و كن زهرة تحيا بنسيم يقبل من ربيع المصطفى >> . [11]**

ثانيا: ثقافته: **كانت ثقافته رحمه الله واسعة ومتنوعة، تبدو واضحة من خلال مؤلفاته، فيكفي أن يقرأ المرء محاضرة واحدة من كتابه "تجديد التفكير الديني"، حتى يتبين له ذلك، فقد نهل من الثقافة القديمة، والثقافة الحديثة وتزود من ثقافة الشرق والغرب . بدأ تعليمه بحفظ القرآن في إحدى الكتاتيب، ثم ادخله أبوه مدرسة "البعثة الاسكوتية" في سيالكوت، وأوصى والده صديقه "مير حسن" الذي كان أستاذا بالمدرسة أن يعلمه الدين . وكان لهذا الأستاذ اثر عظيم في الصبي، حيث غرس فيه حب الثقافة والآداب الإسلامية، ولم ينسى فضله إلى آخر حياته. [12] وبعد إتمام دراسته بهذه المدرسة أرسله والده إلى "كلية الحكومة" بلاهور، وهناك أتيحت له فرصة الدراسة على يد عدد من الأساتذة المبرزين، وفي مقدمتهم الأستاذ الانجليزي الشهير توماس ارنولد صاحب كتاب "الدعوة إلى الإسلام"، وكان لهذا الأستاذ فضل كبير على إقبال، فقد أشعل مواهبه الكامنة، وحثه على عدم التراخي في طلب العلم، وأيقظ شعوره ودفعه إلى مواصلة قرض الشعر، وبشره بأنه يحمل من الشعر طاقات هائلة لبعث الأمة الإسلامية من سباتها العميق[13]، وهناك تحصل على شهادة تعادل "الماجستير" وبعدها عين مدرسا لتاريخ والفلسفة والسياسة بالكلية الشرقية في "لاهور" ثم نقل إلى "كلية الحكومة" التي تخرج فيها أستاذا في للفلسفة واللغة الانجليزية.**

سافر إلى لندن بهدف الدراسة سنة 1905م، والتحق بجامع "كمبرج" فحصل منها على شهادة في فلسفة الأخلاق، وبعدها التحق بجامعة "ميونخ" بألمانيا التي حصل منها على درجة الدكتورة في الفلسفة عن رسالته " تطور ما بعد الطبيعة في فارس" ثم عاد إلى لندن ودرس فيها القانون ثانية، وحاز امتحان المحاماة، كما درس السياسة في مدرسة العلوم السياسية هناك .

ثالثا: مؤلفاته: **كتب بعض أشعاره باللغة الفارسية وبعضها باللغة الاوردية وكتب الفلسفة باللغة الانجليزية:**

- ما كتب باللغة الفارسية:

1- أسرار خودي	**- "أسرار الذاتية "**	**- نشر سنة 1915**
2- أسرار بي خودي	**- "أسرار نفي الذاتية"**	**- نشر سنة 1918**
3- بيام مشرق	**- "رسالة المشرق "**	**- نشر سنة 1923**
4- زبور عجم	**- " زبور العجم "**	**- نشر سنة 1929**
5- جاويد نامه	**- " رسالة الخلود"**	**- نشر سنة 1932**
6- مسافر	**- "مسافر"**	**- نشر سنة 1934**
7- بس جه بايدكرد اى اقوام الشرق	**- "ماذا نصنع يا أمم الشرق"**	**- نشر سنة1936**
8- هدية الحجاز		

- ما كتب باللغة الأردية:

1- بانك درا	**- "صلصة الجرس"**	**- نشر سنة 1924**
2- بال جبريل	**- "جناح جبريل"**	**- نشر سنة 1935**
3- ضرب كليم	**- "ضرب الكليم"**	**- نشر سنة 1937**

- كتب الفلسفة:

1- تطور الميتافيزيقا في إيران – نال بها درجة الدكتوراه – 1908

2- تجديد التفكير الديني في الإسلام – مجموعة محاضرات

وقد ترجمت بعض كتبه ودواوينه إلى اللغة العربية نذكر منها:

- رسالة المشرق – ترجمه: عبد الوهاب غرام

- ماذا نصنع يا أمم الشرق ترجمه: الشيخ الصاوي شعلان

- ضرب كليم – ترجمه: عبد الوهاب غرام

- هدية الحجاز- ترجمه: حسين مجيب المصري سنة 1975

وترجم الشيخ الصاوي قصائد أخرى من الدواوين الباقية في كتابه – ديوان إقبال-

رابعا: رحلاته:

جاءت الدعوة من حكومات فرنسا، اسبانيا، وايطاليا، وفي اسبانيا زار مسجد قرطبة وصلى فيه لأول مرة في التاريخ بعد جلاء المسلمين، وذرف على تربته دموعا غزيرة، وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين، فنظم قصيدة من أبدع قصائده .

ولما زار فرنسا أبى أن يزور مسجد باريس وقال: << إن هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها . >> خامسا: العوامل التي كونت شخصيته:

– العامل الأول: المدرسة الغربية، وهي المدرسة التي نال فيها الثقافة العصرية والدراسات الغربية، فقد تقلب في فصولها، ودروسها ما بين الهند وانجلترا وألمانيا، فارتوى من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية .

– العامل الثاني: المدرسة الإيمانية التي تولد مع الإنسان، ويحملها الإنسان معه في كل مكان، هي مدرسة القلب والوجدان،هي مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية، وتمدها بالقوة الروحية، فيرجع إقبال الفضل في تكوينه، وتماسك شخصيته، وثبوته أمام المادة ومغرياتها، وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحي بالنبي صلى الله عليه وسلم، وحبه العميق له، يقول في ذلك: <<لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبي، ويعشي بصري، وذلك لأني اكتحلت باثمد المدينة>>، ويقول: << مكثت في أتون التعليم الغربي، وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود >>، ويقول:<< لم يزل، ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني، ويكنون لي، ولكني لا أخافهم فاني احمل اليد البيضاء، إن الرجل إذا رزق الحب الصادق، عرف نفسه، واحتفظ بكرامته، واستغنى عن الملوك والسلاطين، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم وانقادت لي الصعاب، فاني من عبيد ذلك السيد العظيم، الذي تشرفت بوطأته الحصباء، فصارت أعلى قدرا من النجوم، وجرى في إثره الغبار، فصار أعبق من العبير>> .

إن الأستاذ الكريم الذي يرجع فيه الفضل في تكوين شخصية محمد إقبال لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين، انه القرآن العظيم، لكن قراءته للقرآن كانت تختلف عن بقية الناس قال عن ذلك: << قد تعودت أن اقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم، وكان أبي يراني فيسألني: ماذا اصنع؟ فأجيبه: اقرأ القرآن، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله، فأجيبه جوابي، وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبي؟ تسألني نفس السؤال، وأجيبك جوابا واحدا، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك يا ولدي اقرأ هذا القرآن كأنما نزل عليك، ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن، واقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست ومن درره ما نظمت.>> [14]

ويضيف قائلا في شأن القرآن: << انك أيها المسلم، لا تزال أسيرا للمتزعمين للدين، والمحتكرين للعلم، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأسا، إن القرآن الذي هو مصدر حياتك، ومنبع قوتك، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فتقرأ عليك سورة " يس " لتموت بسهولة، فوا عجبا، قد أصبح الكتاب الذي انزل ليمنحك الحياة والقوة، يتلى الآن لتموت براحة وسهولة .>> [15]

– العامل الأخير[16]: **والمؤثر الكبير في تكوين عقله وتوجيه رسالته هو "المثنوي المعنوي" بالفارسية وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي، في ثورة وجدانية، ونفسية شديدة ضد الموجة العقلية الإغريقية التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصارا قويا، وانتصف للقلب، والروح والعاطفة، والحب الصادق، والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة، والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين .**

المبحث الثاني: موقف إقبال من التصوف.

أولا: مفهوم التصوف عند إقبال.

قبل التعرض إلى مفهوم التجربة الصوفية عند إقبال، نتعرف على موقفه من التصوف بصفة عامة،والحقيقة أنه رحمه الله درس التصوف جيدا، قبل أن يقدم مفهومه للتجربة الصوفية في هذا الشأن يقول: << لقد ناقشت موضوع التصوف بطريقة علمية موضوعية إلى حد كبير، وحاولت أن اكشف عن الظروف الفكرية التي استلزمت هذه الظاهرة، وبعكس الفكرة الرائجة في هذا الصدد انتهيت من هذه المناقشة إلى أن التصوف كان نتاجا ضروريا لمجموعة، العوامل الأخلاقية والفكرية، التي كان لابد أن تحرك النفس الغافية نحو مثل أعلى للحياة.>> [17]

وقد انتهى إقبال من دراسته هذه إلى التمييز بين نوعين من التصوف:

– أ– تصوف ايجابي

– ب– تصوف سلبي

فالتصوف السلبي هو التصوف الأعجمي، الذي كان منتشرا في عصره، وقد أشار إلى اثر هذا التصوف في المسلمين فقال: << فأسلوب التصوف وهو الأسلوب الذي تطورت ونمت به الحياة الدينية في أسمى صورها أصبح الآن في حكم الفاشل ولعله اضر بأي مكان آخر، فقد كان ابعد ما يكون عن تدعيم قوى الحياة النفسانية عند الر جل العادي، بحيث تعده للمشاركة في موكب التاريخ، فعلمه نوعا من الزهد الزائف، وجعله يقتنع بجهله ورقه الروحي . >> [18]، وهذا النوع من التصوف قد صور العالم على انه شر، ونشر روح التخاذل والتواكل بين المسلمين، فكان سببا في تخلفهم وضعفهم سيطرة الجهل عليهم، وأوقف نمو قواهم الروحية، لان التكاسل من شأنه إضعاف الروح في حين يعمل النشاط على تجديد قوى الروح .

وأما التصوف الايجابي الذي يلتزم بمبادئ الكتاب والسنة ويعمل في إطارهما، فان إقبال قد آمن به وأولاه عناية كبيرة . ويرى انه العلاج الأنفع لعلاج الإنسانية مما أصابها من أمراض بسبب النزعة المادية، وفي هذا الصدد يقول: << وقد أصبح الرجل العصري بما له من فلسفات نقدية وتخصص علمي يجد نفسه في ورطة، والسبب في ذلك أن المذهب الطبيعي قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق

اليه، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو. >> [19] . والحق أن المذهب الطبيعي الذي اعتمد فيه الإنسان على العقل وحده في التفكير دون إفساح مجال للروح، قد أمده بطاقات هائلة وفتح له مجالات واسعة في الطبيعة، وكشف له عن مغاليق كثيرة غير انه اغتر ونسى أصله، ونسى أن للطبيعة خالق، فقد طغى واستغنى فنسي أصله ونسي خالقه، لأنه أصبح لا يؤمن إلا بما هو مادي وبما يقع عليه حسه، ومن ثم أنكر كل ما هو غيبي، وأنكر وجود الله وأنكر القيم الروحية . لقد حاول إقبال أن يخفف من النزعة العقلية التي طغت على الإنسان المعاصر، وأن يعيد إلى النفوس النزعة الروحية التي تحفظ للبشرية وجودها، وتحقق لها السعادة والراحة النفسية، ويرد للإنسان إنسانيته التي أهدرت، وكرامته التي سلبت، والحقيقة انه متأثر في ذلك بأستاذه جلال الدين الرومي، الذي يجله ويقدره، ويفتخر بتأثره به، حيث يقول في ذلك: << قد سحر عقولك سحر الإفرنج، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي، وحرارة إيمانه، لقد استنار بصري بنوره، ووسع صدري بحرا من العلوم . >> [20]

ويقول كذلك: << لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أن كليما واحدا – يشير إلى سيدنا موسى – هامته على راحته يغلب ألف حكيم قد احنوا رؤوسهم للتفكير. >> [21]

من هنا كان مبعث اهتمام إقبال بالتصوف، وعنايته بالاتجاه الروحي، لما له من أهمية في الظروف التي ضاعت فيها الأخلاق، وانتشر الإلحاد، وأصبحت النفوس تستشعر بالضياع، فالتصوف الايجابي هو السياج المنيع والحصن المتين، الذي يحمي الأمم من الانحلال، ويقيها نشر التفكك والضياع .

- ثانيا: حاجة العصر إلى التصوف:

إن عصرنا الحالي في حاجة إلى هذا التصوف الايجابي، الذي يلتزم بحدود الشرع ويتحرك في إطاره فهو الكفيل بإعادة الوضع الأخلاقي البناء، ويفعل مصادر القوى الخيرية على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة، وفي هذا يقول إقبال: << ... الدين الذي هو في أسمى مظاهره ليس عقيدة فحسب أو كهونة أو شعيرة من الشعائر، هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصري إعدادا خلقيا يؤهله لتحمل التبعة العظمى التي لابد من أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث، وأن يرد اليه تلك النزعة من الإيمان، التي تجعله قادرا على الفوز بشخصيته في الحياة الدنيا، والاحتفاظ بها في دار البقاء، إن السمو إلى مستوى جديد في فهم الإنسان لأصله ولمستقبله من أين جاء وإلى أين المصير، هو وحده الذي يكفل له آخر الأمر الفوز على مجتمع يحركه تنافس وحشي، وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية >>[22].

وخلاصة القول في هذا أن موقف إقبال من التصوف، هو موقف عالم، مسلم، معتدل، واعي، يجعل لمبادئ الدين وحقائقه الكلمة الأولى، وهو في موقفه هذا يشبه موقف ابن تيمية من التصوف، هذا الموقف الذي يجعل من التصوف مدرسة للطهر والعفة، وحصنا للأخلاق ودرعا للدين، ودافعا للعمل

والجهاد والمثابرة، وهذا ما جعل أبو الحسن الندوي يكتشف حقيقة لم يسبق إليها فيها اعلم احد، وهي أن ابن تيمية رحمه الله يعد احد العارفين بالله[23].

ثالثا: مصادر المعرفة عند محمد إقبال:

في الحقيقة إنني أريد أن أعرض مفهوم التجربة الصوفية عند محمد إقبال من باب نظرية المعرفة، التي تختص في إمكانية قيام معرفة ما عن الوجود بمختلف أشكاله ومظاهره، وإذا كانت المعرفة ممكنة فما أدواتها؟ وما حدودها؟، وما قيمتها؟. فمن البحث في هذه القضايا وأمثالها تفرعت المذاهب الفلسفية المعروفة:

- المذهب العقلي: **الذي يرى بأن العقل بما ركب فيه من استعدادات أولية أو مبادئ قبلية هو وسيلتنا الوحيدة للمعرفة اليقينية .**
- المذهب الحسي: **الذي يرجع المعرفة كلها إلى ما تمدنا بها الحواس باعتبار العقل صفحة بيضاء ليس فيه إلا ما تنقله إليه حواسنا .**
- المذهب العرفاني: **الذي يذهب إلى أن الطريق الصحيح للمعرفة الجديرة بهذا الاسم هو الحدس، أو العرفان " التجربة الصوفية "**

إن محمد إقبال يذهب إلى أن المعرفة لا تأتي للإنسان بطريق واحد، وإنما يكون له ذلك عن طريق الرياضة الصوفية الباطنية، والطبيعة وما فيها من كائنات، والتاريخ وما يحتوي عليه من قصص هي محل للعبرة . فهو يستلهم رأيه من القرآن والسنة التي أشارت إليها المصادر السالفة الذكر، ويستشهد إلى ما ذهب إليه بقوله " برنارد رسل " حيث يقول << ونحب أن نشير في هذا المقام إلى ما صرح به "رسل " من أن التاريخ الفكري والحضاري للإنسان يشير إلى وجود ميلين متميزين ونظريتين مختلفتين إلى الحقيقة أحدهما الميل الصوفي، وآخر الميل العلمي . وقد برز عظماء في كل واحد من هذين الميلين، فكان هناك من بلغ الذروة في الحدس الصوفي والاعتماد على البصيرة، كما كان هناك من برز في الجانب العلمي الذي يعطي شهادة الحواس والتجارب المقام الأول، غير أن هناك أعظم من هؤلاء جميعا، وهو الذي جمع إلى ثاقب الفكر ودقيق الملاحظة، رفاهة الحس وصدق الحدس ونفاذ البصيرة وإضاءة الوجدان >>[24].

المبحث الثالث: التجربة الصوفية عند إقبال.

يعرف محمد إقبال رحمة الله عليه التجربة الصوفية من خلال خصائصها المتمثلة فيما يقوله في هذا الصدد:

1- إن أول ما نلاحظ هو واقع الوسائط في هذه الرياضة، أنها تجربة أو رياضة تصل إلى النفس مباشرة، فكما أن نواحي التجربة العادية تخضع لتأويل موضوعات الحس لتحصيل العلم بالعالم الخارجي، فكذلك مجال التجربة الصوفية يخضع للتأويل لتحصيل العلم بالله .

والملاحظة الثانية هي أن الرياضة الصوفية كل لا يقبل التحليل، فعندما أدرك المائدة الموجودة أمامي يدخل في هذا الإدراك المفرد، مالا يعد من أسس الإدراك فأتخير من هذه الكثرة الوافرة ما يتصل بالمائدة، ويقع في ترتيب معين من الزمان والمكان واصقله في فكرة متسقة عن المائدة

أما الحال المتصوف فمهما ظهر بوضوح، ومهما بلغت من غنى فإن التفكير فيها يصل إلى الحد الأدنى من درجاته ويستحيل تحليل مدركات هذه الحال كما نحلل الإدراك الحسي، فالحقيقة قد تداخلت فيها جميع البواعث المختلفة، وتألفت منها جميعا وحدة واحدة غير قابلة للتحليل ولا اثر فيها للتمييز المعهود بين الذات والموضوع .

2- والأمر الثالث، الذي نلاحظه هو أن الحالة الصوفية عند المريد هي لحظة من الاتصال الوثيق بذات أخرى فريدة سامية محيطة تفنى فيها الشخصية الخاصة للمريد فناءا موقوتا .

3- وبما أن المعرفة الصوفية معرفة مباشرة فمن الواضح أنه لا يمكن أن يطلع

بالتعقد عليها نقلها لإنسان آخر، وذلك لأن الحالات الصوفية أشبه بالشعور منها بالتعقل، وما يعلنه الصوفي أو النبي من تفسير لفحوى محتويات شعوره الديني يمكن أن يبلغ للناس على صورة قضايا، ولكن محتويات الشعور الديني نفسها لا يمكن الاطلاع عليها أي نقلها لغيره .

وكون المعرفة الصوفية لايطلع عليها يرجع إلى أن هذه المعرفة في جوهرها شعور غير ملحوظ لم يمسه العقل المستطرد في التعبير .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن الشعور الصوفي ككل شعور فيه عنصر من الفكر أيضا.

وسبب هذا العنصر على ما اعتقد يسعى به الشعور الصوفي أن تكون له صورة فكرة . وفي الحق أن طبيعة الشعور السعي إلى الالتماس والإفصاح عن نفسه في الفكر .

4- واتصال المريد بالذات الأزلية، ذلك الاتصال المباشر الذي يبعث في نفسه شعورا بأن الزمن المتجدد، فالحالة الصوفية باعتبار تفردها تظل متصلة بالتجربة العامة على وجه ما . [25]

5- والجدير بالملاحظة هنا هو أن إقبال يضيف عنصرا جديدا هنا في مفهوم التجربة الصوفية، فهو لم ينكر دور الفكر(العقل) في الرياضة الصوفية فهو يرى أن الفكر والإلهام متصلان فليس هناك من سبب في رأيه يدعو إلى الظن بأنهما متضادان بالضرورة، فهما ينبعان من أصل واحد، وكل منهما يكمل الآخر، فإحداهما يدرك الحقيقة جزءا جزءا والآخر يدركهما في جملتهما،إحداهما يركز نظرته نحو ما فيها من خلود، والثاني نحو ما فيها من حدوث . فالبداهة تهدف إلى الحقيقة في مجموعها بالتدبر في تعيين أجزاءه المختلفة، وإفراد كل واحد منها والتأمل فيه على حدة . كلاهما يفتقر إلى الآخر لتجديد

قواه، وكلاهما يلتمس شهود نفس الحقيقة التي تنكشف لكل منهما على نحو تتلاءم مع وظيفته في الحياة . وفي الحقيقة أن البداهة – كما يقول برجسون – ليست إلا ضربا عاليا من التفكير . [26]

ونخلص من ذلك إلى أن التجربة عند محمد إقبال هي مصدر المعرفة لكن هذه التجربة في مفهومها الواسع تنقسم إلى قسمين:

أ) التجربة العلمية التي موضوعها الطبيعة ووسائلها العقل والحواس.

ب) التجربة الصوفية وموضوعها الذات ووسائلها القلب والعقل وبذلك فهو يجمع بين وسائل المعرفة الثلاثة للحصول على المعرفة والوصول إلى الحقيقة وفي هذا الصدد يقول:<< فإحدى الطرق الغير مباشرة لإيجاد الصلات بيننا وبين الحقيقة التي تواجهنا هي الملاحظة التأملية والسيطرة على العلامات التي تدل عليها الحقيقة كلما تكشفت هذه العلامات عن ذاتها للإدراك الحسي .

أما الطريقة المباشرة فتكون بالاتحاد مع الحقيقة عندما تتجلى في داخل النفس اتحاد مباشر، وعناية القرآن بالطبيعة ليست شيئا أكثر من الاعتراف بأن الإنسان يمث بالصلة إلى الطبيعة، وهذه الصلة بوصفها وسيلة محكمة للتحكم في قوى الطبيعة ن لا لمجرد رغبة جامحة في التحكم، وإنما لغرض أنبل يؤدي إلى تحرر حركة الحياة الروحية في رقيها وتساميها، ولكي نكفل إدراك الحقيقة إدراكا كاملا ينبغي أن يكمل الإدراك الحسي بادراك آخر هو ما يصفه القران بادراك "الفؤاد" أو "القلب" قال تعالى:<< الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون>> -[السجدة 7-9]

والقلب نوع من علم الباطن أو البداهة، يصفه الشاعر الرومي في عبارة طلية فيقول:<< انه يتغذى بأشعة الشمس ويصل بيننا وبين وجوه الحقيقة، غير تلك الوجوه المتاحة لإدراك الحواس>> [27] .

ويضيف إقبال ليؤكد على صحة المعرفة القلبية والاعتداد بها قائلا:<< والقلب كما يفهم من القلب لا يكذب أبدا إذ فسر على وجهه الصحيح على انه لا ينبغي أن نعد القلب قوة خاصة خفية، فما هو إلا أسلوب من أساليب تحصيل الحقيقة ليس للحس بما لهذه الكلمة من معنى فسيولوجي أي دخل فيه . ومجال الرياضة المفتوح سبيله للقلب مجال حقيقي وواقعي ككل درب آخر من دروب التجربة، وليس في وصف رياضة القلب بأنها روحانية أو صوفية، أو أنهما من خوارق الطبيعة،ليس في هذا ما يقلل من شأنها من حيث هي التجربة، فكل تجربة في نظر الإنسان البدائي كانت من خوارق الطبيعة، ولقد أوحت إليه ضروريات الحياة الملحة أن يضع لها تفسير، ولدت منه بالتدريج "الطبيعة " المعنى الذي اصطلحنا عليه لهذا اللفظ >>

والحقيقة انه لم يوجد من استطاع أن يوضح التجربة الصوفية بلغة العصر بمثل هذا الشرح والتفسير، كما وضحها محمد إقبال، ولقد مكنه من ذلك سعة الاطلاع والمعرفة كما رأينا سابقا في مقدمة

هذا البحث، ضف إلى ذلك إيمانه القوي الصادق حيث لاح له ذلك بقبس من نور الحقيقة يشعر بها كل من يقرأ فكر هذا الرجل . فهو صاحب عقل وبصبر نافدين، وحس رهيف قل من رزق ذلك .

والسؤال الذي يطرح نفسه علينا: هل بعد هذا يمكننا نقد وفحص نتائج التجربة الصوفية؟ يرى إقبال أن <<تناول التجربة الصوفية بالنقد والتمحيص ليس فيه شيء من عدم الاحترام لها، فنبي الإسلام كان أول من تناول بالنظر النقدي الظواهر الروحية وقد أورد البخاري[29] وغيره من رواة الحديث وصفا مستفيضا لملاحظة الرسول – لشاب يهودي– هو ابن صياد استرعت أحوال ذهوله أنظار النبي، فاختبره وسأله وفحص عن أحواله. وعلى أية حال فان أول مسلم أدرك معنى تصرف النبي وقيمته هو ابن خلدون الذي تناول عناصر المعرفة الصوفية بروح نقادة وأوشك أن يصل إلى النظرة الحديثة عن العقل فيما وراء الشعور >> [30].

وهنا نلاحظ أن إقبال يعطي تفسيرا خاصا للمقولة المشهورة بين علماء الصوفية من الغزالي في القرن الخامس هجري (ت 505 هـ) إلى محمد متولي الشعراوي في عصرنا هذا، والتي ترى أن العقل محدود . كما نجدها عند ابن عربي [31]، عندما التقى بابن رشد وحواره معه، والتي خلاصتها أن العقل في بحثه عن الحقيقة محدود بسقف لا يمكنه تجاوزه، وفي ذلك يضرب محمد متولي الشعراوي مثالا قائلا: << ... مادام للعقل حدوده التي يقف عندها ولا يتعداها وقد شبهته مرة بأنه كالمطية التي تحمل صاحبها إلى باب السلطان ليدخل إلى رحابه بدونها ... >>[32]، ثم يوضح ذلك الرأي صراحة قائلا: << ... الرأي القائل بان العقل في جوهره متناه، ومن ثم لا يقدر على إدراك غير المتناهي رأي ينهض على تصور خاطئ لحركة العقل في تحصيل المعرفة، ان قصور الفهم المنطقي (العقل الاستدلالي الذي يسير على خطوات في عالم الحس المتفرق) الذي يواجه الكثير من الجزيئات المتنافرة فيما بينها،و التي لا آمل في ردها جميعا إلى وحدة واحدة، هذا القصور هو الذي يجعلنا نشك في إمكان توصل العقل إلى إدراك قاطع... >> [33]، ويضيف في نفس السياق قائلا: << ... على أن الفكر قادر على أن يصل في حركته العميقة إلى لا نهائي سار فيها، والتصورات المتناهية المختلفة ليست إلا لحظات في حركة تجليه، فالفكر من حيث طبيعة جوهره ليس قارا معطلا بل هو متحرك فعال يتكشف إذ يحين الوقت عما فيه من لا نهائية، مثل الحبة – (البذرة)– تحمل في طياتها من أول الأمر وحدة الشجرة الكاملة على أنها حقيقة ماثلة، وعلى هذا فالفكر هو الكل في حركة تكشف عما في ثناياه، يبدو للناظر إليه من زاوية الحدوث كسلسلة من معينات محددة لا يمكن إدراكها إلا من طريق نسبة بعضها إلى بعض ...>> [34] يستمد محمد إقبال مفهومه للعقل من القرآن الكريم، هذا الأخير الذي كان مصدرا إلهامه الأول والأخير وأما باقي المصادر الأخرى ليست إلا وسائل يستعملها في فهم النصوص القرآنية، فصدق الله العظيم القائل: << يا أيها الذين امنوا بالله ورسوله يوتيكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم >> [.....

[

فإقبال يؤمن بالعقل الاستدلالي المسترشد بنور الإيمان، ويرفض العقل المغتر الذي ينكر كل سلطان عليه وخاصة سلطان العقل، فإقبال كما يرفض النظر المجرد الذي يهمل الواقع . فهو يفهم من قوله تعالى: << قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم اقل لكم أني اعلم غيب السموات والأرض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون>> [البقرة -33-] بأنها تشير إلى أن الإنسان موهوب بالملكة التي تجعل له القدرة على وضع أسماء للأشياء أي أنه يكون التصورات لها، وتكوين هذه التصورات معناه إدراكها وفهمها، فالمعرفة الإنسانية قائمة على الإدراكية، وبفضل هذه المعرفة الإدراكية يدرك الإنسان ماهو قابل للملاحظة من الحقيقة >> [35]

نختم هذا المقال ببعض حكم ومواقف إقبال:

1- لقد استطاع إقبال أن يعرف النفس وغاص في أعماقها، ودعى إلى معرفتها فقال: << أنزل في أعماق قلبك، وادخل في قرارة شخصيتك،حتى تكتشف سر الحياة، ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني،لكن أنصف نفسك يا هذا !واعرفها وكن لها وفياً، ما ظنك بعالم القلب، وهو كله حرارة وسكر، وحنان وشوق،أما عالم الجسم فتجارةٌ وزورٌ واحتيالٌ، إن ثروة القلب لا تفارق صاحبها، أمّا ثروة الجسم فظل زائل، ونعيم راحل، إن عالم القلب لم أرى فيه سلطة الإفرنج ولا اختلاف الطبقات،ولقد كدت أذوب حياء، وتندى جبيني عرقا؛ إذ قال لي حكيم: إذا خضعت لغيرك؛ أصبحت لا تملك قلبك ولا جسمك (36)>>.

2- وقال في نفس السياق والمصدر:<< إن الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحب الصادق، وتمسك بآداب هذه المعرفة،أنكشف على هذا المملوك أسرار الملوك.إن الفقير الذي هو أسد من أسود الله أفضل من أكبر ملوك العالم .

3 - << إن الصراحة والجرأة من أخلاق الفتيان، وأن عباد الله الصالحين لا يعرفون أخلاق الثعالب >>

- <<يا صاح! إن الموت أفضل من رزق يقص من قوادمي ويمنعني من حرية الطيران>>

- قدم له رئيس وزراء في دولة في عيد ميلاده، هدية محترمة من النقود فرفضها وقال:<< إن كرامة الفقير تأبى علي إن أقبل صدقة الأغنياء >>

- يقول في مقطوعة:<< لك الحمد يا رب! إذ لست من سقط المتاع،ولست من عبيد الملوك والسلاطين، لقد رزقتني حكمةً وفراسة،عليّ أني لم أبعها لملك من الملوك.>>

- ويقول: << إني من غير شك فقير قاعد على قارعة الطريق،ولكنيّ غنيٌّ النفس أبيٌّ>>

- ويقول: << إذا لم تكن تعرف رازقك كنت فقيرا إلى الملوك،وإذا عرفته أفتقر إليك كبير الملوك. إن الاستغناء ملوكية، وعبادة البطن قتل للروح، وأنت مخير بينهما،إذا شئت اخترت القلب، وإذا شئت اخترت البطن .>>

4– عرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية،وكان من تقاليد هذه الوظيفة أن حرم نائب الملك تكون سافرة، تستقبل الضيوف في الولائم الرسمية وتكون مع زوجها في الحفلات، فأشير عليه بذلك فرفضها وقال: << مادام هذا شرطا لقبول الوظيفة ؛ فلا اقبله،إهانة ديني، ومساومة كرامتي .>>

5– قال رحمه الله عندما قدّم إلى الأمير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان المصحف الشريف: << إن هذا القرآن سند أهل الحق،في ضميره حياة وروح،تندرج في بدايته النهاية،به فتح علي باب خيبر>>.

5– ويقول في ديوان أسرار خوذي:<< إن هذا الكتاب،كتاب خالدُ، حكمته غارقة في الأبد،إنه يفشي أسرار تكوين الحياة،ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه بالقول الثابت >>

– << قوة الذات تحول حبة الخردل إلى جبل .

خور الذات يحول الجبل إلى حبة خردل>> [جناح جبريل]

– << يتجاوز الهلال كل وجوهه وجها بعد وجه

من يستطيع بلوغ الغاية القصوى دون جهد؟ >> [جناح جبريل]

– << غاية ثورة المؤمن، أن تتجلى عليه ذاته،والحق أن موسيقى الكون الخالدة لا تقوم إلا على العقبات >> [جناح جبريل]

– << لا تتجنب الأزمنة الصعبة،من لا يتخطى العقبات لا قيمة له، ألا تعرف أن الموجة لا تكون ممتعة إلا عندما تلطم الصخور؟>> [رسالة المشرق]

وأخيرا نختم بهذا البيت الذي يلخص موضوع بحثنا:

<< خير أنواع الزهد ليس في هجر الطين والماء # خير انواع الزهد في غزو كلّ زاويةفي الأرض والسماء. [جناح جبريل]

الهوامش

(1) جوستاف لوبون – حضارة الهند –تعريب عادل زعيتر مصر 1948م ص205.

(2) عبد المنعم النمر –تاريخ الإسلام في الهند – القاهرة مصر سنة 1959م ص29.

(3) محمد غلاب –الفلسفة الشرقية – الطبعة الثانية–الانجلو المصرية–بدون تاريخ –ص99.

(4) – الهندوسية ديانة عرقية في الهند،فهي ديانة كل هندي مالم يدين بديانة أخرى.

(5) أبو الحسن الندوي– رجال الفكر والدعوة في الإسلام – دار القلم –دمشق سوريا –الطبعة الأولى –2002م –ج1/ص97 .

(6) الشهرستاني – الملل والنحل – تخريج محمد بن فتح الله –الطبعة الثانية –القاهرة –سنة 1956م الجز.2/ص258.

(7) محمد غلاب–مرجع سابق – ص115.

(8) ديورانت –قصة الحضارة –ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود –ج3/ص95.

(9) أحمد الساداتي – تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية–الطبعة 2 –القاهرة سنة1970م –ص37.

(10) عبد الوهاب عزام – محمد إقبال – سيرته وفلسفته وشعره – مطبوعات باكستان–1954م – ص18.

(11) الصاوي شعلان– إيوان إقبال–القاهرة سنة1977م –ص235.

(12) أبو الحسن الندوي – روائع إقبال – دمشق سنة 1960م– ص15 .

(13) محمد إسماعيل الندوي–نظرات جديدة في شعر محمد إقبال–القاهرة سنة 1969م –ص11.

(14) أبو الحسن الندوي– رجال الفكر والدعوة في الإسلام –مرجع سابق – ج1/ص34.

(15) ديوان هدية الحجاز –عن المرجع السابق – ص34.

(16) جلال الدين الرومي: ولد في السادس من ربيع الأول سنة 604 هـ،في بلخ من أعمال أفغانستان،ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تأثر بـ <<شمس الدين التبريزي>>، فامتلأ بروح جديدة وأنكشف له عالم جديد بعد اتصاله بهذا الصوفي الذي يعرف الناس قليلا عن حياته، ولذلك أشار في بيت شعري له: << إن الشمس التبريزي هو الذي أراني طريق الحقيقة، وهو الذي أدين له في أيماني ويقيني >>[أبو الحسن الندوي – رجال الفكر والدعوة في الإسلام –ج1 ص392–مرجع سابق.]

(17) Iqbal: development of metaphysca in Persia: p10

(عن عبد المقصود عبد الغني – محمد إقبال ومنهجه في تحديد الفكر الإسلامي مكتبة الزهراء –2000م – ص62)

(18) ديوان الأسرار – ترجمة الدكتور عزام – ص 19، وكذلك رسالة الخلود – ترجمة الدكتور السعيد محمد جمال الدين ص333 .

(19) محمد إقبال – تجديد التفكير الديني في الإسلام – ترجمة عباس محمود – مراجعة عبد العزيز المراغي بك – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – 1955م – ص214

(20) أنظر ديوان محمد إقبال–إعداد سيد عبد الماجد الغوري–دار ابن كثير دمشق–بيروت–ص2.

(21) نفس المرجع – ص42 .

(22) نفس المرجع – ص177 .

(23) للاطلاع على ذلك أنظر: أبو الحسن علي الحسن الندوي – رجال الفكر والدعوة في الإسلام – مرجع سابق ص 41، 42 .

(24) إقبال تجديد الفكر الديني في الإسلام – مرجع سابق – ص105 .

(25) نفس المرجع – ص (26–31) .

(26) نفس المرجع – ص7 .

(27) نفس المرجع – ص23 .

(28) نفس المرجع – ص24 .

(29) البخاري – صحيح البخاري – كتاب الجنائز – ورواه كذلك في كتاب الجهاد .

(30) محمد إقبال – تجديد الفكر الديني – ص25 .

(31) محي الدين بن عربي، ولد سنة 1165م الموافق لـ 562هـ، وتوفي سنة 1240مالموافق لـ 638هـ بالأندلس، وهو من أشهر شخصيات التصوف، له عدة مؤلفات منها: الفتوحات المكية، فصوص الحكم، وله كتاب في تفسير القرآن الكريم على المنهج الصوفي، وعلى الرغم من انه يسلك في كتبه سبل البحث النظري الفلسفي، وإن كان في اتجاه صوفي، فإنه ينظر من أعلى بإحتقار إلى ألئك اللذين يظنون انه في وسعهم الوصول إلى معرفة الحقيقة عن طريق الفكر والنظر فحسب – (أنظر في ذلك – إجنتس جولد زيهر – مذاهب التفسير الإسلامي – ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار – دار إقرأ – الطبعة الخامسة 1992م – بيروت لبنان – ص241) وللمزيد انظر حواره في ذلك مع إبن رشد في كتابه: الفتوحات المكية – جزأ 1 الصفحة 153 – وما بعدها .

(32) محمد متولي الشعراوي – محاضرة تحت عنوان لماذا لم يفسر النبي (ص) القرآن – مطبوعة على الآلة الراقنة – القاها في الجزائر في التسعينيات من القرن الماضي .

(33) و (34) – محمد إقبال – تجديد الفكر الديني – ص13،12،11.

(35) محمد إقبال – تجديد التفكير الديني في الإسلام – ص20 .

(36) محمد إقبال – جناح جبريل .